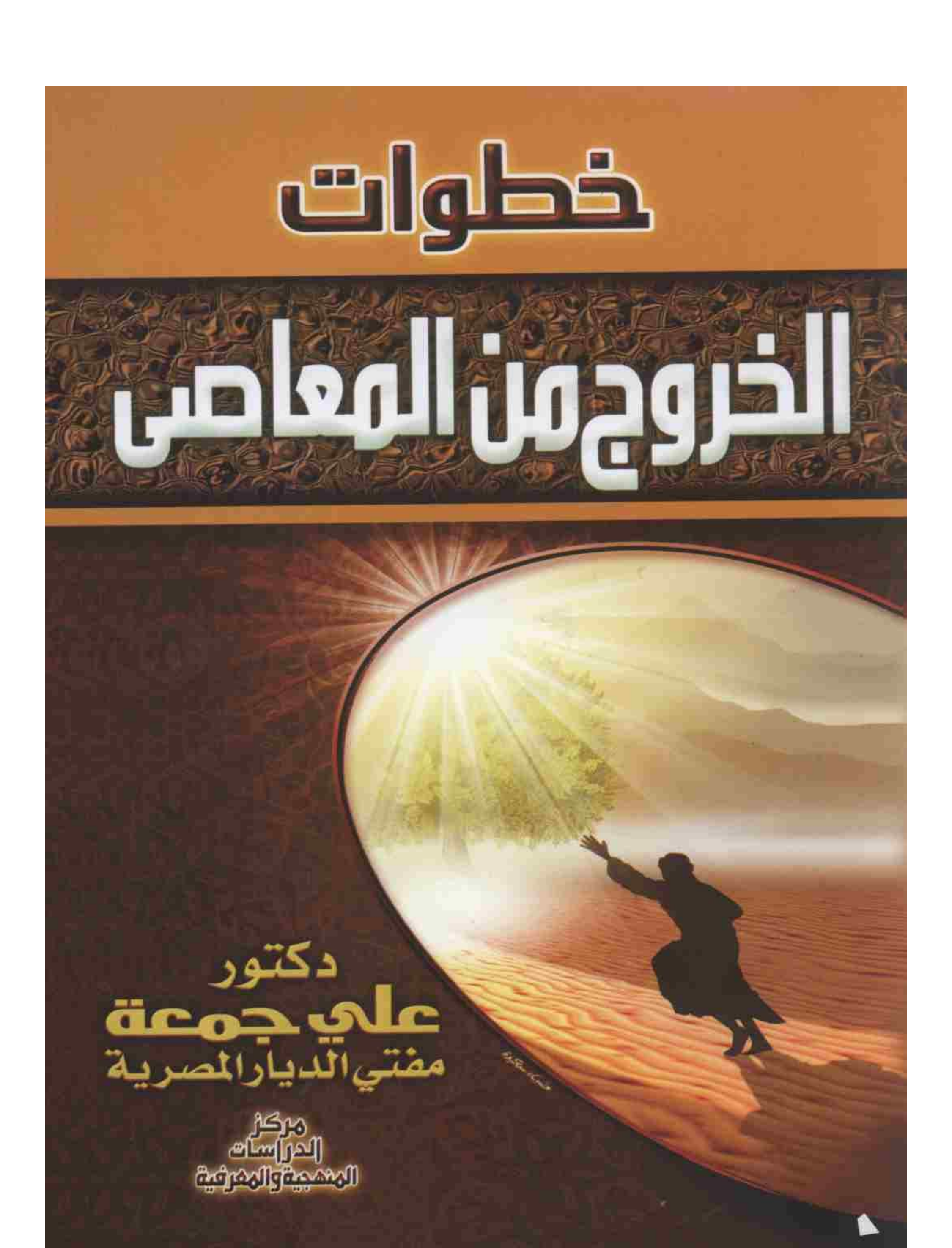

خطوات
الخروج من المعاصي
دكتور
علي جمعة
مفتي الديار المصرية
مركز
الدراسات
المنهجية والمعرفية

خطوات الخروج من المعاصى

الدكتور
على جمعة
مفتى الديار المصرية

مركز
الدراسات
المنهجية والمعرفية



إقرار بتسليم رقم الإيداع بدار الكتب

طبقاً لقانونى الإيداع رقمى

٣٨ لسنة ١٩٩٢م، ٨٢ لسنة ٢٠٠٧

عنوان المصنف : ....

اسم المـؤلف : .... العنوان : ....

اسم النـاشـر : .... العنوان : ....

اسم الطـابـع : زهـران .... العنوان : ....

الطبعة وتاريخها : .... عدد الصفحات : .... مقاس النسخة : ....

رقـم الإيـداع : ٢٠٠٧/١٦٩٨٧ الترقيم الدولى : ....

تحـريرا فى : ٢٨/٨/٢٠٠٧ المتسلم : ....

رقم قـومى : .... مندوب : ....

ملحوظة :

يتم إيداع النسخ المقررة طبقاً للقانونين المشار إليهما فى خلال ثلاثة أشهر من تاريخ الحصول على رقم الإيداع



مركز الدراسات المنهجية والمعرفيه

فريق العمل

المشرف العام

الأستاذ/ عماد الدين مصطفى طه

الباحثون

الأستاذ/ أحمد محمد خلف

الشيخ/ أسامة فتحي بدر

الأستاذ/ عبدالحميد منصور شوقي

الأستاذة/ لطيفة محمد عبدالرحيم

المراجعة

الشيخ/ سيد شلتوت

أمين الفتوى بدار الإفتاء المصرية

الأستاذ/ أحمد صلاح الدين الهجين

المدرس بالجامع الأزهر



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

ثم أما بعد،،،

فالتوبة من المعصية واجبة شرعًا على الفور باتفاق الفقهاء؛ لأنها من أصول الإسلام المهمة وقواعد الدين، وأول منازل السالكين، قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور:٣١).

والإنسان يحتاج للتوبة دائمًا لأن الله قد أمر بتوبة مخصوصة وهي التوبة النصوح فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التحريم:٨).

وقد تنوعت النصوص في معنى التوبة النصوح، وأشهرها ما روي مرفوعًا عن معاذ أن النبي ﷺ قال:

«التوبة النصوح أن يندم المذنب على الذنب الذي أصاب فيعتذر إلى الله ﷻ ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع»[١] وأن التوبة النصوح هي التي لا عودة بعدها كما لا يعود اللبن إلى الضرع، وقيل: هي الندم بالقلب، والاستغفار باللسان، والإقلاع عن الذنب، والاطمئنان على أنه لا يعود.

فلا بد من المراجعة الدائمة لأنها عظيمة النفع في تَرَقِّي الإنسان وخَلاصِه من الدَّنَايَا، ولقد ضرب لنا المصطفى مثلاً من نفسه؛ حيث قال ﷺ: **«يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة»**[٢]، وسُنَّةُ الله في طبيعة البشر اقتضت أن تكون تلك التوبة والمراجعة دائمة، ولا ينبغي أن نَمَلَّ من كثرة التوبة إلى الله، ولا نملَّ من مصارحة النفس بالعيوب والقصور، ولا أن نملَّ من الإقلاع بهمة متجدِّدَة لربِّ العالمين.

والله يحب من عبده إذا أخطأ أن يرجع عن خطئه، حتى

(١) أخرجه السيوطي في "اللآلىء المصنوعة" عن حذيفة (ج١/ ٥٣)، ط دار الكتب العلمية، وأخرجه الكناني في "تنزيه الشريعة المرفوعة" (ج١/ ٢٠٥) ط دار الكتب العلمية.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى عن أبي هريرة (ج٦/ ١١٤رقم١٠٢٦٥) ط دار الكتب العلمية.

لو تكرَّرَ الخطأ أو الخطيئة، فهو يقبل التوبة من عباده ويعفو عن كثير، ويقول رسول الله ﷺ: « كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ »(١).

والتوبة فلسفة كبيرة في عدم اليأس، وفي وجوب أن نجدد خياتنا وننظر إلى المستقبل، وأن لا نستثقل حِمْلَ الماضي، وإن كان ولا بد أن نتعلَّمَ منه دروسًا لمستقبلنا، لكن لا نقف عنده في إحباط ويأس، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون.

التوبة فيها رقابة ذاتية تعلمنا التصحيح وتعلمنا التوخي والحذر في قابل الأيام، وهي من الصفات المحبوبة؛ فلنجعلها ركنًا من أركان الحب.

والتوبة تُخرِج الإنسان من ذنوبه، وكأنه لم يفعل ذنبًا قط، قال النبي ﷺ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ»(٢)،

---

(١) أخرجه الترمذي عن أنس(ج٤/ ٦٥٩رقم٢٤٩٩) و قال أبو عيسى: "هذا حديث غريب" ط إحياء التراث العربي، وأخرجه الحاكم عن أنس(ج٤/ ٢٧٣رقم٧٦١٧) بلفظ "بني" بدلاً من "ابن" وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ط دار الكتب العلمية.

(٢) أخرجه ابن ماجه (ج٢/ ١٤٢٠رقم٤٢٥٠) ط دار الفكر، وأخرجه الطبراني في الكبير. (ج١٠/ ١٥٠رقم١٠٢٨١).و قال المنذري:"كلاهما من رواية أبى عبيدة ابن مسعود عن أبيه، ولم يسمع

وكان النبي ﷺ يُكثِر من الاستغفار والتوبة إليه ﷻ ليترقَّى في درجات القُرب، وليعلمنا كثرة الاستغفار، فقال ﷺ: «إِنِّى لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِى الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً»(١).

وقد تكون التوبة بمعنى التوبة عن المعاصي والذنوب، وقد تكون بمعنى الإنابة وهي أعلى من التوبة عن المعاصي والذنوب، حيث يُخرِج الإنسان من قلبه كل ما سِوَى الله، فيفرغ قلبه من السِّوَى، وينشغل بالله ﷻ وحده.

ثم تترقَّى في الإنابة إلى أن تكون أوَّابًا، والأوبة هي: الرجوع التام إلى الله ﷻ ويتأتَّى ذلك بإقامة الدين في النَّفْس، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم: ٣٠: ٣٢).

وتتأكَّد التوبة وتُستَلْزَم مع الغفلة والتقصير والشهوة،

= منه، ورواة الطبراني رواة الصحيح" ط مكتب العلوم والحكم.

(١) أخرجه ابن ماجه عن سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه عن جده (ج٢/ ١٢٥٤ رقم٣٨١٦) ط دار الفكر.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٣٥).

من هنا وجب التعريف بفضائل التوبةوخطوات الخروج من المعاصى ،والتنبيه على هذه الكمالات ،حتى يتطلع إليها المسلم،ويطلبها حثيثا

وهذا ما يهدف إليها هذا الكتاب الذي،يتعرض لعدد من القضايا المهمة التي يحتاج المسلم إلى المعرفة بها

ويشتمل هذا الكتاب – بعد هذه المقدمة – على فصلين:

الفصل الأول:التوبة.

الفصل الثانى:خطوات الخروج من المعاصى.

* * *



الفصل الأول

التوبة



بالتوبة تحيى القلوب

للقلب حياة وموت، وإبصار وعمى، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج:٤٦)، والله يريد من المؤمن أن يحيا قلبه ويبصر فيتعرف على الحقائق.

وقلوب البشر ليست واحدة، فالقلب قد يكون غليظًا قاسيًا وقد يكون رقيقًا لينًا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ (البقرة:٧٤).

وكان قلب رسولنا ﷺ رقيقًا حنونًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران:١٥٩).

ويكون القلب سليمًا، وقد يكون سقيمًا مريضًا، قال تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة:١٠)، وقال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ (الأحزاب:٣٢)، ولا يفلح إلا صاحب القلب السليم، قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء:٨٩).

والقلب مكشوف لله يعلم ما به على حقيقته، حتى إن

حاول الإنسان الكذب على الخلق، فلا يؤثر ذلك في علم الله به، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة:٢٠٤).

والقلب يكون منبعًا للطاعات، كما يكون منبعًا للآثام – والعياذ بالله – وذلك في حالة فساده،

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٨٣).

والإنسان لا يملك قلبه، ولا يملك أن يُغيِّر ما به، بل القلب ملك لله يصرفه ربنا ويُقَلِّبُه كما يشاء، فالله يحول بين المرء وقلبه،

قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الأنفال:٢٤).

والقلب هو المعتبر عند الله في الإيمان والكفر، فقد يضطر إنسان للنطق بالكفر تحت التعذيب والآلام، فأخبرنا ربنا أن هذا الإكراه لا يؤثر في حقيقة إيمانه؛ لأن العبرة بإيمان القلب واطمئنانه،

قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (النحل:١٠٦).

والقلب يغفل باتباع الهوى، ومعاندة شرع الله، وقد أمر

الله نبيه ﷺ بعدم متابعة هذا الصنف من الناس أصحاب تلك القلوب، فقال تعالى: ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف:٢٨).

والقلب يتقلب من شدة الخوف كالبصر، والمؤمن يخشى ذلك اليوم الذي يتقلب فيه قلبه وبصره،

قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ (النور:٣٧).

ولو تأملنا ما سبق من مقدمات نجدنا قد ذكرنا بعض الآيات القرآنية عن القلب؛ وذلك لأن تحقيق التوبة الصادقة شرط لإحياء القلب، ودخول الأنوار فيه، والإقبال على ربه ﷻ، قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ (ق:٣٣).

والتوبة في اللغة: العَوْد والرجوع، يقال: (تاب) إذا رجع عن ذنبه وأَقْلَعَ عنه، وإذا أُسْنِدَ فعلها إلى العبد يُراد به رجوعه من الزَّلَّة إلى الندم، يقال: تاب إلى الله توبة ومتابا: أناب ورجع عن المعصية، وإذا أُسْنِدَ فعلها إلى الله تعالى يستعمل مع صِلَةِ (عَلَى) ويُراد به رجوع لُطْفِه ونِعْمَتِه على العَبْد والمغفرة له، يقال: "تاب الله عليه" غفر له وأنقذه من المعاصي، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة:١١٨).

وفي الاصطلاح التوبة هي: الندم والإقلاع عن المعصية من حيث هي معصية، لا لأن فيها ضررًا لبدنه وماله، والعَزْم على عدم العود إليها إذا قدر.

وعرَّفها بعضهم بأنها الرجوع عن الطريق المعوج إلى الطريق المستقيم.

وعرفها الغزالي بأنها: العلم بعظمة الذنوب، والندم والعزم على الترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي.

وهذه التعريفات وإن اختلفت لفظًا فإنها متحدة معنىً، وقد تطلق التوبة على الندم وحده إذ لا يخلو عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه، ولهذا قال النبي ﷺ: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»[1]، والندم توجع القلب وتحزنه لما فعل وتمني كونه لم يفعل.

وشروط التوبة ثلاثة:

أولاً: أن يقلع الإنسان عن الذنب ويفارقه ويبتعد عنه.

(١) أخرجه ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود (ج٢/ ١٤٢٠رقم٤٢٥٢) ط دار الفكر، وأخرجه أحمد(ج١/ ٤٢٢رقم٤٢٠١) ط مؤسسة قرطبة، وأخرجه الحاكم (ج٤/ ٢٧١رقم٧٦١٢) ط دار الكتب العلمية. وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه اللفظة إنما اتفقا على حديث الإفك.

ثانيًا: ثم يندم القلب على ما فَرَّط واقترف في حق الله.

ثالثًا: ثم يعزم بإخلاص ويعاهد الله على عدم العودة للذنب مرة أخرى.

ومن أعمال التوبة التي تؤكِّد صِدْقَها في القلب وقبولها من الرب ﷻ صلاة التوبة التي سَنَّها لنا رسول الله ﷺ حيث قال: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللهَ إِلاَّ غَفَرَ اللهُ لَهُ**» ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ[1].

والتوبة من خصائص المجاهدين في سبيله لأنهم يتشوفون إلى لقاءه، فلا تهون نفس الإنسان عليه إلا بلقاء الله، والنظر إلى وجهه الكريم يهون علينا الدنيا وما فيها بمَنْ فيها، ومن كمال الاستعداد للقاء الله الخروج من كل حال لا يرضى عنه ربنا، ولذلك يُسارع المؤمن إلى التوبة، ويسارع إلى الإقلاع عن المعصية لأنه مجاهد في سبيل الله.

وترك التوبة ظلم للنفس، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الحجرات: ١١)، فاستحق تاركُ

---

(١) أخرجه أبو داود عن أبي بكر ﷺ (ج٢/ ٨٦رقم١٥٢١) وصححه الألباني، ط دار الفكر.

التوبة وَصْفَ الظالم، فهو ظالم لنفسه بوقوفه حائلاً بينها وبين ربها، والتوبة لا تَصحُّ إلا بعد معرفة الذنب، **وحتى يكمل لك معرفة الذنب لابد أن تنظر إلى ثلاثة أشياء:**

أولها– أنك تخليت عن حفظ الله لك، وأسقطته و اجْتَرَأْتَ على الذنب.

ثانيها– أنك فرحت به عند فعله بدل أن تحزن.

ثالثها– أنك أصْرَرْتَ على عدم الرجوع فور فعله مع تَيَقُّنك بنظر الحق إليك.

ويقول صاحب كتاب "**منازل السائرين**" الشيخ أبو إسماعيل الهروى كلامًا عاليًا في التوبة نذكره بنصِّه لكثرة فوائده: «**وحقائق التوبة ثلاثة:**

١– تعظيم الجناية وذلك بالنظر إلى من عصيت،

٢– اتهام النفس في التوبة،

٣– طلب إعذار الخليقة،

وسرائر حقيقة التوبة ثلاثة:

١ــ تمييز الثقة من الغرة،

٢ــ نسيان الجناية،

٣ــ التوبة من التوبة أبدًا، لأن التائب داخل في الجميع من قوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور : ٣١)، فأمر التائب بالتوبة.

ولطائف أسرار التوبة ثلاثة :

اللطيفة الأولى- النظر إلى الجناية والقضية، **فيعرف مراد الله تعالى فيها إذ خلاه وإتيانها، فإن الله تعالى إنما يخلي العبد والذنب لأحد معنيين:**

أحدهما– أن يعرف عزّته في قضائه، وبرّه في ستره، وحلْمَه في إمْهَال راكبه، وكرمَه في قبول المعذرة منه، وفضلَه في معرفته.

والثاني– ليقيم على العبد حجّة عدله، فيعاقبَه على ذنبه بحجته.

اللطيفة الثانية: أن يعلم أن نظر البصير الصادق في سيئاته لم يُبْقِ له حسنة بحال، لأنه يسير بين مشاهدة المنة وتطلب عيب النفس والعمل:

البصير هو الذى يفكر ويرجع كل شيء إلى الله ﷻ. الصادق هو من لم يستحل المعصية و لم يستمرئها و لم يقل عن نفسه أنه قد جُبر عليها ولا شيء فيها، أو أنها تستوي في الحسن والقبح مع الطاعة وأنه لا بأس من المعصية كما أنه لا بـــأس من الطاعة ،والله ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾[١].

---

(١) – سورة البروج، آية/١٦

واللطيفة الثالثة: أن مشاهدة العبد الحُكْمَ لم تدع له استحسان حسنة ولا استقباح سيئة لصعوده من جميع المعاني إلى معنى الحُكْم:

عندما ينظر إلى الحكَم الربانية فإنه يعلم أن الكل من عند الله، وأن الطاعة بالتوفيق، وأن المعصية بالابتلاء، وأنه في كليهما يجب عليه الرضا عن ربه، وأنه قد أمره الله عندما يبتلى بالمعصية أن يتوب، وعندما يفعل الحسنة أن يشكر، وعندما يشكر فإنما هذا توفيق آخر من ربنا يحتاج إلى شكر مكرر ودائم.

والتوبة بداية الطريق إلى الله، وأصل المقامات، فمن لا توبة له لا مقام له.

وتثمر التوبة النصوح الصادقة: محبة الله تعالى؛ وهي حالة يجدها العبد في قلبه تُلَطِّفُ العبارة، وتَحْمِله تلك الحالة على التعظيم لله وإيثار رضاه، وقلة الصَبر عنه والاحتياج إليه، وعدم القرار من دونه، ووجود الاستئناس بدوام الذكر له بقلبه.

* * *

التوبة مفهوم شامل

إن التوبة أصبحت كلمة إذا ما سمعها المؤمن اختزل معناها وجعلها قاصرة على معاصٍ خاصة، وجعلها أمرا غيبيًا يتعلق باليوم الآخر، والتوبة أعظم من ذلك تشمل هذا وتزيد عليه كثيرًا.

فالتوبة حالة نقد ذاتي، وحالة من مراجعة النفس، وحالة من الرقابة الإدارية، إلا أننا إذا سمعنا هذه الألفاظ - النقد الذاتي ومراجعة النفس ومحاولة الرقابة والإدارة - ظَنَنَّا أن هذه الألفاظ لا علاقة لها بالتوبة، لأن مفهوم التوبة أصبح قاصرًا عند أغلب الناس على الإقلاع عن معاصٍ بعينها، وليس الأمر كذلك.

كما أننا إذا سمعنا مصطلحات الرقابة الإدارية، والإدارة، والنقد الذاتي نفهمها في إطار مدلولاتها الغربية، لأنها مصطلحات أطلقها أهل الحضارة الغربية للتعبير عندهم على معانٍ خاصة، إلا أننا نرى أن التوبة تشمل هذه المعاني مجتمعة.

ذكرنا أن النبي ﷺ كان يكثر من التوبة، وكان يقول:

«إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً».(١)

فرسول الله يتوب أكثر من سبعين مرة، وهو الذي مدحه البوصيري - رحمه الله - فقال:

فاق النبيين في خَلـق وفي خُلـق ... ولم يـدانوه في علـم ولا كـرم

فهو الذي تـم معنـاه وصـورته ... ثم اصطفاه حبيبًا بـارئُ النسمِ

منزهٌ عن شريـكٍ فـي محاسنه ... فجوهر الحسن فيه غـير منقسمِ

فأي توبة كان يتوب، هل كانت التوبـة حالـة مـن النقـد الذاتي، أو مراجعة النفس، أو المحاسبة؟

ربما كان ذلك كله، مع التأكيد أنه معصوم لا تـصدر منـه المعاصي فلا يحتاج إلى توبتنا نحن، وهي التوبة من الذنوب.

ذكرنا فيما سبق أن التوبة في اللغة هي الرجوع والعودة إلى الله، ومنها كذلك؛ المراقبة، ومنها المحاسبة، فلو فهمنا التوبة وما تستلزمه من عمليـات داخليـة لأدخلناهـا عنـصرًا مـن عناصر الإدارة، وعنصرا أساسيًّا في الاقتـصاد الـذي يجـري بين الناس، وعنصرًا أساسيًّا في الحكم، وعنـصرًا أساسـيًّا في السياسة الداخلية والخارجية.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه عن سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه عن جده (ج٢/ ١٢٥٤ رقم٣٨١٦) ط دار الفكر.

والتوبة تقتضي الإقلاع والبعد عن الحالة التي لا تُرضي الله سواء كانت هذه الحالة في علاقتك بربك من فعل المحرمات أو ترك الواجبات، أو كانت هذه الحالة في علاقة بمن حولك كالإساءة للأهل والجيران وسوء الأخلاق والكذب والخيانة وشهادة الزور، أو كانت هذه الحالة في أدائك في عملك أو محافظتك على النظافة والنظام.

وعلى أي الأحوال يجب عليك أن تكون في كل زمان ومكان في حالة يرضى عنها ربنا فلا يراك على حالة لا يرضاها.

ولكننا لن نتمكن من الوصول إلى حالات الرضا التي أمرنا الله بها بحولنا وقوتنا، فإن القوة لله وحده ﷻ، قال تعالى: ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (البقرة:١٦٥)، فلا حول ولا قوة إلا بالله، والإيمان بذلك يورث التبرُّأ من القوَّة الموهومة والحَوْل المزعوم لدى البشر، فيعلم الإنسان أنه لا حول ولا قوة له، فيلجأ إلى الله ويستمدُّ منه القوة على طاعته، ويستمدُّ منه الحَوْلَ عن معصيته.

لأجل ذلك المعنى قال رسول الله ﷺ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ قُلْ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ»، أَوْ قَالَ « أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ، لاَ

حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ »[1] حيث تدل هذه الكلمة على حقيقة وجود الإنسان في الأرض، وحقيقة سعيه فيها.

والتوبة تكون بعد الاستغفار، ولن نقول إن التوبة بعد المغفرة، فالمغفرة التي يمن الله بها على العبد هي من ثمرات صدق التوبة، وإنما التوبة تكون بعد الاستغفار.

والاستغفار هو: طلب المغفرة من الله وطلب العون، مما يحقق معاني الالتجاء إلى الله، وبعد طلب المغفرة تأتي التوبة، قال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ (هود:٣).

والتوبة الحقيقية هي التوبة الصادقة، التي يتحرَّى فيها الإنسان الصدق مع نفسه، فلا يفعلها ليُبْعِدَ عذاب الضمير عن نفسه فحسب، بل يفعلها بصدق وعزم مع الله، ولا يفعلها رياء بين الناس، فالتوبة الصادقة ليس فيها مخادعة، فإن المخادعة من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة:٩)، فالمؤمن صريح مع نفسه، فلا بُدَّ من الشفافية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ج٥/ ٢٣٤٦رقم٦٠٢١) ط ابن كثير اليمامة، وأخرجه مسلم في صحيحه (ج٤/ ٢٠٧٧رقم٢٧٠٤) ط إحياء التراث العربي. كلا هما عن أبي موسى

والتوبة ينتج عنها المراجعة، ونلاحظ هنا خطورة تفريغ التوبة من معناها الدنيوي وقصرها على معناها الغيببي، فقد ذكرت الآية: ﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ (هود:٣)، فقوله: ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إلى مدة حياتكم فإنْ أرْجَعْنَا لها الجانب الآخر يَتَّضِحُ لنا إعجاز القرآن ويَتَّضِحُ لنا عُمُومَ ألفاظِه.

والتوبة إلى الله لا يمنعها كثرة الذنوب والكبائر، بل إن الله أتى بأرجي آية في كتابه الكريم مع شدة الإسراف على النفس، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهَّ إِنَّ اللهَّ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ (الزمر ٥٣، ٥٤).

وعلى المسلم أن يزيد من الرجاء عند الوقوع في الزَّلات، وليس العكس وهنا معنى لطيف تكلَّمَ عنه أهل الله، فإن نقص الرجاء عند الوقوع في الزَّلات علامة على أن الاعتماد في الغفران لم يكن على الله، بل كان على العمل، وينبغي

للمسلم أن يعتمد في رجائه وطلب المغفرة على صفات الجمال لله التي لا تنقص بالذنوب، فهو سبحانه الرحمن الرحيم الغفور الغفار التواب، نرجوه لأجل ذلك فلا ينقص الرجاء مع الذنوب، وفي هذا المعنى يقول سيدي ابن عطاء الله السكندري ﷺ: "من علامة الاعتماد على العمل نقصان الرجاء عند وجود الزلل" وهي أولى الحكم التي بدأ به كتابه العظيم "الحكم العطائية" في إشارة إلى أن بداية الطريق تكون بالتوبة والاعتماد على الله وحده.

ولذا ترى النبي ﷺ يَقُصُّ على أصحابه قصة قاتل المائة، وهو يريد أن يتوب بعد كل هذه الذنوب، والله يقول: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة:٣٢)، فكم مَرَّة قتلَ هذا الرجلُ الناسَ جميعًا؟ ورغم كل هذه الذنوب فإنه أراد التوبة، وانتظره ربُّه، وفرِحَ بعودته، والنبي ﷺ يقول: « قَالَ اللهُ ﷻ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِى وَاللهِ للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلاَةِ وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَىَّ يَمْشِى أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ »[1]

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة (ج٤/ ٢١٠٢رقم٢٦٧٥) ﻃ

فما قصة ذلك الرجل؟ يرويها رسول الله ﷺ فيقول: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ لاَ. فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ. وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ». قَالَ قَتَادَةُ فَقَالَ الْحَسَنُ ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ[1].

إحياء التراث العربي.

(١) أخرجه مسلم عن أبي سعيد الخدري (ج٤/ ٢١١٩ رقم ٢٧٦٦) ط إحياء التراث العربي.

وفي هذه القصة التي يرويها النبي ﷺ أمور كثيرة يجب أن نتعلمها:

الدرس الأول: أن الذي يُسأل عن أحكام الشرع العالم وليس العابد (الراهب)، فعندما أخطأ مَنْ دَلَّه على الراهب حدثت جريمة أخرى في وقت يحتاج فيه الرجل إلى التوبة إذ به يقتل العابد الذي أفتى بجهل، فلا ينبغي لأحد أن يقصد كل من ظهرت عليه علامات العبادة أو الصلاح بالسؤال في الدين، فإن هذا الدين علم.

كما أنه لا يجوز لكل من اقترب من ربه وسار في طريقه أيامًا أو شهورًا أو سنين أن يَظُنَّ أن له إفتاء الناس، فإن الإفتاء يكون للعلماء، ورأينا عندما ذهب إلى العالم انتهى الأمر، وتَنَزَّلَت الرحمات، فهذا هو الدرس الأول الذي ينبغي أن نخرج به من هذه القصة.

الدرس الثاني: أن بهذه القرية قوم سوء، لأنه تمكَّنَ مِنْ قَتْلِ هذا العدد دون أن يجدَ مَنْ يَرْدَعُه، ومَنْ يأخذ على يَدِه، فلم يكن هناك أمر بمعروف ولا نهي عن المنكر، ولا سلطات، ولا أي شيء، فهذا جَوٌّ فاسد لا يصلح لعبادة الله، فهم قوم سوء لأنه استخفهم ولم يُقِمْ لهم وزنًا، قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف: ٥٤)،

وقال سبحانه: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (المائدة:٧٨)

الدرس الثالث: أن التوبة حتى تستمر لابد وأن يتهيأ لها بيئة صالحة، ومجتمع متضامن متناصح، ويظهر هذا المعنى في قول العالم لقاتل المائة: « **انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء**»، فالإنسان يحتاج مُعينًا له على الطاعة، وعلى الخير ناصحٌ أمين.

الدرس الرابع والأخير: أن الأعمال بالخواتيم، وفي هذا يقول النبي ﷺ: « **إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ فَوَالَّذِي لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ**

فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا »[١].

ويقول النبي ﷺ: « إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ »[٢].

كل هذه الدروس نتعلَّمها من هذا الحديث، ويشتمل الحديث كذلك على كثير من الدروس والتفصيلات، ولعلنا ذكرنا أهمها.

فالمسلم مأمور بالمراجعة الدائمة للتوبة؛ لأنه لا يزال يخطئ، وسَنَّ اللهُ ﷻ فيه أن يستمرَّ ذلك دائمًا، ويرشدنا سيد الخلق ﷺ إلى أنه يفعل ذلك كلَّ يوم، فلا نملُّ من التوبة إلى الله، ومصارحة النفس بالعيوب والتقصير، والإقلاع بهمَّة متجددة لرب العالمين، ولا ننسى الآخرة، ولا ننسى التوبة من هذه المعاصي.

إن ترك نقد الذات ومراجعة النفس والتوبة إلى الله ﷻ يؤدِّي إلى عذاب كبير لعلَّنا نعيش بعضَه في أيامنا هذه، فإن

(١) أخرجه البخاري (ج٣/ ١١٧٤رقم٣٠٣٦) ط ابن كثير اليمامة، وأخرجه مسلم (ج٤/ ٢٠٣٦رقم٢٦٤٣) ط إحياء التراث العربي،كلاهما عن عبد الله بن مسعود.

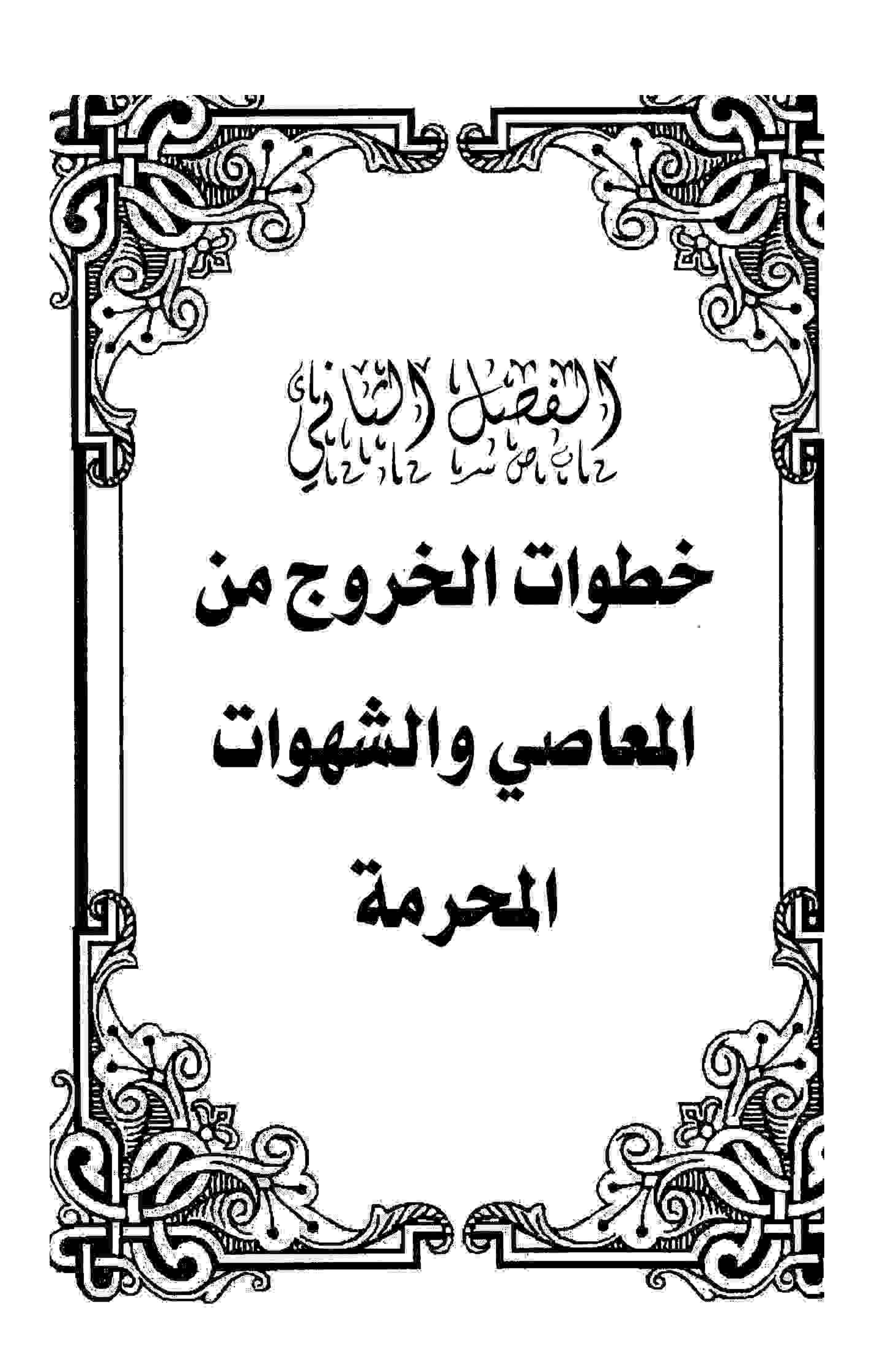
(٢) أخرجه البخاري عن سهل بن سعد(ج٦/ ٢٤٣٧رقم٦٢٣٣) ط ابن كثير اليمامة.

صلاح إنسان واحد لا يكفي لصلاح المجتمع أو لنهضة الأمة وصحوتها، فلا بد من أن تكون توبتنا إلى الله جماعية، ومراجعتنا شاملة لقضايا الإنسان في كل مكان وفي كل مجال.

أراد الله توبة نصوحا، ولعل مادة "نصوحا" تذكرنا بمعنى النُّصْحِ، فالدين النصيحة، والنُّصْحُ له أركان وشروط، فيكون فيه المجتمع هو الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر الذي لا تشيع فيه الفواحش والمنكرات والفساد.

فاختزال معنى التوبة في المعنى الغيبي وَحْدَهُ بَتْرٌ لمرادِ الله، وبترٌ لأوامره وإرشاداته، نسأل الله أن يعيد علينا التوبة بمفهومها الشامل على مستوى الفرد والمجتمع، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

* * *



الفصل الثاني

خطوات الخروج من المعاصي والشهوات المحرمة



تمهيد

يتساءل كثير من المسلمين ويقولون إن الشهوات تغلب علينا، فنستغفر الله ونترك المعاصي ثم ننسى العهد الذي بيننا وبين الله ونعود للشهوات والمعاصي فما المخرج من ذلك؟

ومن كثرة تكرار هذا الحال كاد الإنسان أن يَيْأَسَ مِنْ نفسه ومن هذا الحال، ولا أقول ييأس من روح الله، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِّ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (يوسف:٨٧)، وهم كذلك لا يقنطون من رحمة الله، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾ (الحجر:٥٦)، وإنما هم في حالة تقارب اليأس من النفس وسوء الظن بالنفس يخرجنا منها حسن الظن بالله ﷻ.

وعلى المسلم إذا وقعَ في الزلات أن يُغَلِّبَ جانبَ الرجاءِ بقسم الجمال من أسماء الله الحسنى، على جانب الخوف، فإن الله ربط بين الوقوع في الزَّلَلِ والإسراف على النَّفْسِ وبين جماله وعفوه وغفرانه فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِّ إِنَّ اللهَّ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٣)، وذلك لتغليب جانب الرجاء، فيساعده ذلك على التوازن، ولذا

ترى أهل الله يحذرون السالكين في الطريق إلي الله من نقصان الرجاء عند الوقوع في الزلات مما له من أثـر سيء في اليـأس من الغفران، يقول سيدي ابن عطـاء الله الـسكندري: "مـن علامات الاعتماد على العمـل نقـصان الرجـاء عنـد وجـود الزلل".

وكذلك.. فعلى المسلم تغليب جانب الخـوف عنـد فعـل الطاعات، وقد بَيَّنَ لنا ربُّنا هذا المنهج في كتابه، فقـال تعـالى: ﴿وَالَّـذِينَ يُؤْتُـونَ مَـا آتَـوْا وَقُلُـوبُهُمْ وَجِلَـةٌ أَنَّهُـمْ إِلَى رَبِّهِـمْ رَاجِعُـونَ﴾ (المؤمنـون: ٦٠)، وعليـه يمكـن أن نزيـد عـلى حكمة سيدي ابن عطاء الله الـسكندري عبـارة: "ونقـصان الخوف عند وجود الطاعة".

والسؤال الآن ما هي الخطوات التـي يجـب عـلى المـسلم إتباعها للخروج من حالة سيطرة المعاصي والشهوات عليه؟

للخروج من هذه الحالـة يجـب أن نتبـع عـدة خطـوات، نستعرضها في الصفحات التالية:

الخطوة الأولى

أن تجعل من رسول الله أبا لك

أولى هذه الخطوات أن يجعل المؤمن نفسه ابنًا لسيدنا رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهَّ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهَُّ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٠)، فلم يجعله ربنا أبًا لأحد من الرجال ليكون خالصًا في أبوته لأمته، ويبقى له بعض الإناث فتموت السيدة زينب الكبرى - عليها السلام - والسيدة رقية والسيد أم كلثوم - عليهن السلام - في حياته، وتبقى السيدة فاطمة - عليها السلام - بعده وتلحق به بعد انتقاله بستة أشهر.

ولم يَتَبَقَّ مِنْ نَسْلِه بعد ذلك إلا الحسن والحسين - عليهما السلام - ومن نَسْلِهمَا الشريف كانت العِتْرَة الطاهرة، والتي أوصانا ﷺ بالتمسك بها حيث قال فيما رواه عنه الإمام مسلم في صحيحه عن يزيد ابن حيان حيث قال: « قَامَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَحَمِدَ اللهَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَوَعَظَ وَذَكَّرَ ثُمَّ قَالَ « أَمَّا بَعْدُ أَلاَ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي

فَأُجِيبَ وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ ». فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ وَرَغَّبَ فِيهِ ثُمَّ قَالَ « وَأَهْلُ بَيْتِى أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِى أَهْلِ بَيْتِى أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِى أَهْلِ بَيْتِى أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِى أَهْلِ بَيْتِى ». فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدُ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ قَالَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ. قَالَ وَمَنْ هُمْ قَالَ هُمْ آلُ عَلِىٍّ وَآلُ عَقِيلٍ وَآلُ جَعْفَرٍ وَآلُ عَبَّاسٍ. قَالَ كُلُّ هَؤُلاَءِ حُرِمَ الصَّدَقَةَ قَالَ نَعَمْ.»(١).

وفي رواية أخرى قالﷺ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كِتَابَ اللَّهِ وَعِتْرَتِى أَهْلَ بَيْتِى »(٢)

وإذا جعل المسلم رسول الله ﷺ أبا له فقد حقق ما

---

(١) أخرجه مسلم عن زيد بن أرقم (ج٤/ ١٨٧٣، رقم ٢٤٠٨) ط إحياء التراث العربي.

(٢) أخرجه الترمذى (ج٥/ ٦٦٢رقم ٣٧٨٦) وقال: قَالَ وَفِى الْبَابِ عَنْ أَبِى ذَرٍّ وَأَبِى سَعِيدٍ وَزَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ وَحُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ. قَالَ وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ. قَالَ وَزَيْدُ بْنُ الْحَسَنِ قَدْ رَوَى عَنْهُ سَعِيدُ بْنُ سُلَيْمَانَ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ.. ط إحياء التراث العربي، وأخرجه الطبرانى في الكبير (ج٣/ ٦٦رقم ٢٦٨٠) ط مكتب العلوم والحكم،كلاهما عن جابر بن عبد الله.

أخبرنا به ﷺ - حيث قال: «**إنما أنا لكم مثل الوالد للولد**»[1]، ويكون ذلك باعْتِزَازِكَ به كما تَعْتَـزُّ بأبيك بل وأكثر، وتستحضر صورته أمامك دائمًا بالليل والنهار، فتعيش معه؛ فإن ذلك سيُعِينُك في طريقك إلى ربك، وتحبه من كل قلبك حتى تكون على استعداد أن تُضَحِّيَ بنفسك في سبيل كلمة تُقَالُ ويُرَادُ منها إنْتقَاصُه.

* * *

(١) جزء من حديث أخرجه الدارمي عن أبي هريرة (ج١/ ١٨٢ رقم٦٧٤) ط دار الكتاب العربي.

الخطوة الثانية

ذكر الله ذكرًا كثيرًا

الخطوة الثانية للخروج من المعاصي والذنوب هي ذكر الله ذكرًا كثيرًا، وفي معنى الذكر المراد قال الصنعاني: «وَالذِّكْرُ حَقِيقَةٌ فِي ذِكْرِ اللِّسَانِ وَيُؤْجَرُ عَلَيْهِ النَّاطِقُ وَلَا يُشْتَرَطُ اسْتِحْضَارُ مَعْنَاهُ، وَإِنَّمَا يُشْتَرَطُ أَنْ لَا يَقْصِدَ غَيْرَهُ فَإِنْ انْضَافَ إلَى الذِّكْرِ بِاللِّسَانِ الذِّكْرُ بِالْقَلْبِ فَهُوَ أَكْمَلُ، وَإِنْ انْضَافَ إلَيْهِمَا اسْتِحْضَارُ مَعْنَى الذِّكْرِ وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى وَنَفْيِ النَّقَائِصِ عَنْهُ ازْدَادَ كَمَالًا، فَإِنْ وَقَعَ ذَلِكَ فِي عَمَلٍ صَالِحٍ مِمَّا فُرِضَ مِنْ صَلَاةٍ أَوْ جِهَادٍ أَوْ غَيْرِهِمَا فَكَذَلِكَ، فَإِنْ صَحَّ التَّوَجُّهُ وَأَخْلَصَ لِلَّهِ فَهُوَ أَبْلَغُ فِي الْكَمَالِ»[1].

ولقد قَرَنَ الله بين ذكر الله كثيرًا والخطوة الأولى التي ذُكِرَتْ وهي أبوّة النبي والتأسّي به في كل حال، فقال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الأحزاب:٤١، ٤٢).

---

(١) سبل السلام (٤/ ٢١٣) ط (مكتبة مصطفى البابي الحلبي الطبعة الرابعة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م)

وقال ﷻ: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَّ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ (الشعراء:٢٢٧)، وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللهَّ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُّ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (الأحزاب: ٣٥)، وحتى في أشدِّ الأحوال وفي لحظات القتال أمَرَ الله بالإكْثار من ذِكْرِ الله، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَّ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الأنفال: ٤٥)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللهَّ أَكْبَرُ وَاللهُّ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٥).

وأثنى سبحانه على المكثرين من الذِّكْرِ رجالاً ونساء، فقال تعالى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللهَّ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُّ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:٣٥)، وذَكَرَ ربُّنا أن ذِكْرَ الله قليلاً كان من سِمَات المنافقين، فقال تعالى: ﴿وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَّ إِلاَّ قَلِيلًا﴾ (النساء:١٤٢).

وروى أبي هُرَيْرَةَ عن النبي ﷺ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ جُمْدَانُ فَقَالَ «**سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ**». قَالُوا وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا

رَسُولَ اللهِ قَالَ «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ»[١]، وقال ﷺ: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»[٢].

ومن الواقع المحسوس أن اللسان لا يكون رطبًا مع كثرة الذكر بل يجفّ، ولكنَّ هذا الجفاف المحسوس الملحوظ هو عند الله الرطوبة المحمودة، وهذا مثيل لقوله: «والذي نفسي بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ»[٣].

وقوله ﷺ: «لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ - وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ - إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ دَماً اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة (ج٤/ ٢٠٦٢رقم٢٦٧٦) ط إحياء التراث العربي.

(٢) جزء من حديث أخرجه الترمذي (ج٥/ ٤٥٨رقم٣٣٧٥) ط إحياء التراث العربي،وجزء من حديث أخرجه الحاكم في المستدرك (ج١/ ٦٧٣رقم١٨٢٢) كلاهما عن عبد الله بن بسر،وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ط دار الكتب العلمية.

(٣) جزء من حديث أخرجه البخاري عن أبي هريرة (ج٢/ ٦٧٠ رقم١٧٩٥) ط ابن كثير اليمامة،جزء من حديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة وعن أبي سعيد(ج٢/ ٨٠٧رقم١١٥١) ط إحياء التراث العربي.

(٤) أخرجه البخاري عن أبي هريرة(ج٣/ ١٠٣٢رقم٢٦٤٩) ط ابن كثير اليمامة.

اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ»(١).

وقال ﷺ: «مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلا الله وحدَهُ لا شَريكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ، ولَهُ الحَمْدُ وهوَ على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ في يوم مائة مرةٍ، كانت له عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وكُتِبَتْ لَهُ مائةُ حسنةٍ، ومُحِيَتْ عنه مائة سَيِّئَةٍ، وكانت لَهُ حِرْزًا من الشيطانِ يومَهُ ذلكَ، حتى يُمسيَ، ولم يأتِ أحدٌ بِأفضلَ مما جاءَ بِهِ، إلا رجلٌ عَمِلَ أكثر منه» (٢).

كان كلُّ ما ذُكِرَ من آيات وأحاديث حتى لا يترك أحد كثرة الذِّكْرِ، ويقول بأنه ليس من هَدْيِ النبي ﷺ؛ فإن النبي ﷺ جعل باب الذِّكْرِ والدعاء مفتوحًا للمسلم يستزيد منه كما يشاء، فذِكْرُ الله مستحب، والإكثار منه من باب الإكثار من المستحب، فبذكر الله تحيى القلوب، وبتركه تموت القلوب.

وذكر الله يحتاج إلى أن يلتزم المسلم بورد (وهو مجموعة من الأذكار المأثورة أو غيرها يلتزمها الذاكر ويواظب عليها؛

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة(ج٣/ ١٠٣٢رقم٢٦٤٩) ط ابن كثير اليمامة.

(٢) أخرجه البخاري(ج٣/ ١١٩٩رقم٣١١٩) ط ابن كثير اليمامة. وأخرجه مسلم (ج٤/ ٢٠٧١رقم٣٦٩١) ط إحياء التراث العربي وكلاهما عن أبي هريرة.

رغبة منه في التقرب من الله، وهو تطوع يتطوع بـه المسلم لم يفرضه الله عليه) لنواجه بها الحياة كلها وهي "سـبحان الله، الحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر، لا حول ولا قوة إلا بـالله" ينتظم حاله عليه ويتقرَّب به إلى ربه.

ولقـد نَبَّـهَ العلـماء عـلى فائـدة الالتـزام بتلـك الأوراد، وضرورة الحفاظ عليها؛ قال النـووي: ينبغـي لمـن كـان لـه وظيفة من الذكر في وقت من ليل أو نهار، أو عقـب صـلاة، أو حالة من الأحوال، ففاتته، أن يتداركها ويأتي بها إذا تمكَّنَ منها ولا يهملها، فإنه إذا اعتاد عليهـا لم يعرضـها للتفويـت، وإذا تساهل في قضائها سهل عليه تضييعها في وقتها.

قال الـشوكاني: وقـد كـان الـصحابة - رضي الله تعـالي عنهم - يقضون مـا فـاتهم مـن أذكـارهم التـي يفعلونهـا في أوقات مخصوصة.

وقال ابـن عـلان: المـراد بـالأحوال: الأحـوال المتعلقـة بالأوقات، لا المتعلقة بالأسباب كالذكر عند رؤيـة الهـلال، وسماع الرعد، ونحو ذلك، فلا ينـدب تداركـه عنـد فـوات سببه، ومن ترك الأوراد، بعد اعتيادها يُكْرَه له ذلك.

هذا فيما يتعلق بالإكثار من الـذكر وأن يكـون ذلـك مـن خلال ورد منتظم يذكر به المؤمن ربه في اليوم والليلة.

والمستحب من الأذكار أو أفضل كلمات يذكر بها المسلم ربه هي ما أسموه أهل الله بالكلمات العشر المباركات وهي كلمات عَلَّمَها لنا رسول اللهﷺ وهي: (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله (وهذه الخمسة أسموها الباقيات الصالحات) وباقي الكلمات العشر هي: أستغفر الله، ما شاء الله، حسبنا الله ونعم الوكيل، إنا لله وإنا إليه راجعون، توكلت على الله).

هذه الكلمات العشر ينبغي للمسلم أن يذكر الله بها دائما، وتخالط معانيها قلبه، ويواجه بها دنياه، ويتعامل به مع من حوله، كما ينبغي أن تظهر في سلوكه حتى تكون منهج حياة يُظْهِرُ حقيقةَ الإسلام والمسلمين، ويُعيد للإسلام مَجْدَه الحضاري والأخلاقي.

* * *

الخطوة الثالثة

التفريق بين الحق والباطل

وهـذه الخطـوة مترتبـة عـلى الخطـوتين الـسابقتين، فـإن استحضار صورة رسول الله ﷺ وأن يجعله المسلم أبًا له مـع كثرة الذكر يُوَلِّد في النَّفْسِ والقلب البـصيرة، ويـتمكَّن مـن المفارقة، ولكن هذه المفارقة لا تَتَأَتَّى إلا بالافتقار إلى الله وأن يطلب ذلك منه لأنه هو الحق سـبحانه، وهـو الهـادي إليـه، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (يـونس:٣٥)، وفي الدعاء المأثور: "اللهم أرنـا الحـق حقًّـا وارزقنـا إتباعـه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه".

وتحقيق تلك البصيرة والقـدرة عـلى التفريـق بـين الحـق والباطل تجعل المؤمن يرى دائرة النور ودائرة الظلام، فـيرى في النور طاقة، ويرى فيه بيانٌ وحلاوة وكشفٌ عن الحقائق.

ويرى في الظلام برودة ورائحة خبيثـة وأحـوالاً مَرْدِيَّـة، ويخرج المسلم من الظلمات إلى النور بذكر الله والاستعانة به، فالله ﷻ يُوالي الذين آمنـوا بـه ويخـرجهم مـن الظلـمات إلى

النور كما وعد سبحانه بذلك في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة:٢٥٧).

ويتحصَّل الإنسان على هذه القدرة من التفريق بين الحق والباطل بتقوى الله ﷻ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال:٢٩).

فالتفريق بين الحق والباطل نور، يحققه الله لمن اتبع نوره الهادي سيدنا محمد ﷺ واستجاب للكتاب العزيز القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة:١٥، ١٦).

والنور والظلمات من خلق الله، ومن فوائد خلق الأضداد في الكَوْنِ تمييز الأشياء، فما كان لنا أن ندرك قيمة النور إن لم يكن هناك ظلمات، ولا قيمة الصحة إن لم يكن هناك مرض، ولكن الذين يستحبون الظلمات على النور هم

الجائرين الذين انحرفوا عن مُراد الله، ولذا يقول تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام:١)، وقديما قالوا: وبضدها تتميز الأشياء.

ولا تعني علاقة التَّضَادِّ بين المخلوقات أنَّ أَحَدَ الأطراف شَرٌّ والآخر خير، فإن هذا قد يتحقق في الحق والباطل.. في الظلمات والنور.. والصدق والكذب، في الصحة والمرض - على تفصيل في كل ذلك - إلا أنه لا يتحقَّق في الغَني والفقير، والحاكم والمحكوم، والأبيض والأسود، فهذه المتناقضات في خلق الله تقتضي التكامل بينها، وخلقها الله متناقضة ليُظْهِرَ كلُّ ضِدٍّ حُسْنَ الآخر، وذلك مصداقا لقول الشاعر:

الخد كالصبح مبيض والشَّعْر كالليل مسودُّ

ضدان لما استجمع حسنا والضد يظهر حسنه الضد

ولقد سَمَّى الله التوراة وصحف موسى عليه السلام بالفرقان، قال تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (البقرة:٥٣)، وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (الأنبياء:٤٨) وسَمَّى ربُّنا القرآن بالفرقان، في سورة اسمها (الفرقان)،

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:١)، وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة:١٨٥)، وقال سبحانه: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۞ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (آل عمران:٣، ٤)، وإطلاق الفرقان على كلام الله باعتبار أنه الأداة التي يفرق بها الإنسان بين الحق والباطل، ويهتدي به إلى الطريق المستقيم.

وسُمِّي أمير المؤمنين الخليفة الراشد عمر بن الخطاب – رضي الله تعالى عنه– بـ (الفاروق) لشِدَّة بصيرته ولعظمة قُدْرَتِه على التفريق بين الحق والباطل مهما كان هناك لَبْسٌ وخَلْطٌ في الأمور.

والمسلم يحتاج إلى الفرقان من ربه في كلِّ وقت وفي كل مكان، ويشتدُّ احتياجه له في وقت الفتنة وزمانها، فما هي الفتنة وما هي حقيقتها، وكيف يخرج المسلم منها بفرقان ربه؟

الفتنة في اللغة هي: الابتلاء والامتحان والاختبار،

وأصلها مأخوذ من قولك: «فتنت الفضة والذهب» إذا أذبتهما بالنار لتُمَيِّزَ الرديء من الجيد، وعلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ (البقرة:١٠٢)، ومنها قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (الأنفال:٢٨)، وقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:٣٥).

وتأتي الفتنة بمعنى الكفر كما في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:١٩٣)، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيرًا﴾ (الأحزاب:١٤).

كما تأتي بمعنى الفضيحة كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(المائدة:٤١).

وتأتي الفتنة بمعنى العذاب والعقوبة، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾ (الأنفال:٢٥)، ومنها قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور:٦٣)، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ (العنكبوت:١٠). ومنها قوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾(الصافات: ٦٢، ٦٣).

وتأتي الفتنة بمعنى القتل والاقتتال بين الناس، منها قوله تعالى: ﴿إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال:٧٣)، قال تعالى: ﴿أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (التوبة:١٢٦).

وتأتي بمعنى السوء والمكروه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج:١١).

وتأتي بمعنى الضلال والغواية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ (الحج:٥٣).

وتأتي الفتنة بمعنى التلبيس والخلط بين الأمور لإخفاء

الحقيقة، ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ (آل عمران:٧)، وقوله تعالى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (التوبة:٤٨).

ولقد جمع النبي ﷺ بين كلِّ هذه المعاني، فيما كان يتعوَّذ من الأدعية في الصلاة، فعن عَائِشَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ قالت: كَانَ يَدْعُو فِي الصَّلَاةِ « **اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ** ». قَالَتْ فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مَا أَكْثَرَ مَا تَسْتَعِيذُ مِنَ الْمَغْرَمِ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ « **إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ** »[1].

والفتنة بمعنى الخلط والتلبيس هي التي نقصدها بالحديث في ذكر الفرقان والتفريق بين الحق والباطل، فزمان الحق هو الزمن الذي يغلب فيه الحق ويسود، ويَخْبُو فيه الباطل ويَضْمَحِلُّ، وزمان الباطل هو عكس ذلك فيغلب فيه الباطل والظلم، ويَخْبُو فيه الحق ويَقِلُّ، إلا أن الرؤية

---

(١) أخرجه البخاري (ج١/ ٢٨٦رقم٧٩٨) ط ابن كثير اليمامة، وأخرجه مسلم (ج١/ ٤١٢رقم٥٨٩) ط إحياء التراث العربي، كلاهما عن عائشة.

تكون واضحة في هذين الزمانين، أما زمن الفتنة وهو الزمن الذي تختلط فيه الأوراق وتَلْتَبِسُ فيه الأمور فتصعب رؤية الحق، ومعرفة الباطل.

وهذا اللَّبْسُ أو الفتنة قد تُحْدِثُ في النَّفْسِ البَشَرِيَّة فتَلْتَبِسُ الأمور داخل الإنسان، فتجعل الحليمَ حيرانًا، فيفقد وضوح الرؤية وتختلط عليه الأمور كثيرًا، ويكون ذلك التباس في الرؤية والنَّفْسِ، ويحتاج فيه المسلم إلى فرقان ربه وتَبَيُّنِه الذي كان سائدًا في أول الأمر في زمن غلبة الحق، قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ (البقرة:٢٥٦).

وقد تَشْتَدُّ هذه الفِتَنُ كما أخبر المصطفى ﷺ وتقلب حالَ الناس بين الكفر والإيمان مَرَّاتٍ كثيرة، قال النبي ﷺ: « **بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»[1].

وهناك نوع آخر من الخلْط واللبْس يكون في المجتمع، وينتج من تداخل أهل الحق وأهل الباطل فيختلط هؤلاء بأولئك فيصعب تميزهم، ويحتاج المؤمن في هذا النوع من

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة(ج١/ ١١٠رقم١١٨) ط ابن كثير اليمامة.

الاختلاط بين أهل الحق وأهل الباطل لنوع آخر من التمييز، ولذا أمر الله الناس أن يطلبوا منه هداية طريق أهل الحق، والبعد عن طريق أهل الباطل، قال تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة:٧).

إلا أن المقياس في معرفة الحق والباطل يعود إلى الأفكار والآراء لا إلى الأشخاص، فالرجال تُعرَف بالحق، ولا يُعرَف الحق بالرجال، والحق المطلق هو الله ﷻ، ونعرفه بكتابه وسنة نبيه ﷺ، فهما مقياس معرفة الحق والباطل، فلا توجد عصمة لأحد غير الأنبياء لأنهم مُبَلِّغِين عَنْ ربهم، أمَّا غيرُ الأنبياء فأقوالهم وآراؤهم واجتهاداتهم تخضع للتقييم بمعايير النَّصِّ الشَّرْعِيِّ.

فالفرقان هو البَيِّنة من الله للتفريق بين الحق والباطل، وبين أهل الحق والباطل، ولأن النبي ﷺ به يعرف الحق من الباطل أمره ربه ﷻ أنْ يُخبِرَنا بأنه على بَيِّنَةٍ منه ﷻ، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ (الأنعام:٥٧)، كما أنَّ كتاب ربنا هو مقياس لمعرفة الحق، وكذلك سمَّاه ربنا "بينة"، فقال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ (الأنعام:١٥٧).

وقد يَضِلُّ الناس ويَـرَوْنَ البَاطِـلَ حقًّـا، وتَـأْبَى عقـولُهم الاستجابة لأمر الله، وفي هـذه الحالـة يـأمر الله الأنبيـاء بـأن يُعَلِّمُوا النـاس أنهـم عـلى بَيِّنَـةٍ ويتركـوا لهـم حريـة الـرأي والعقيدة، كما أخبر سبحانه عن نوح عليه السلام حيث قال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَـتْ عَلَـيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَـا وَأَنـتُمْ لَهَـا كَـارِهُونَ﴾ (هود:٢٨).

وقد ذَكَرَ ربُّنا عن قوم هود ذلك، فقال تعالى: ﴿قَـالُوا يَـا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَـارِكِي آلِهَتِنَـا عَـن قَوْلِـكَ وَمَـا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (هود:٥٣) إلى أن قال لهم هود عليه السلام ما حَكَاه القرآن في قوله تعالى: ﴿فَـإِن تَوَلَّـوْا فَقَـدْ أَبْلَغْـتُكُم مَّـا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَـيْرَكُمْ وَلاَ تَـضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ (هود:٥٧).

ومن خصائص الفتنة أنها في بداية أَمْرِها يَشْتَدُّ اختلاطهـا وفي نهاية أمرها تُعْرَفُ ويَنْتَبِهُ الإنسان لها، والمؤمن مـأمور في الفتنة بالبُعْـدِ عنهـا وعـدم تزكيتهـا وعـدم الـدخول فيهـا، فالنجاة في الفرار من الفتن، وهذا مسلك الغرباء الذين هـم أَحَبُّ الناس إلى الله تعالى كما ورد ذلك عن النبي ﷺ حيـث قال: «**أحب شيء إلى الله تعالى الغرباء، قيل: ومـن الغربـاء؟**

قال: الفرارون بدينهم يبعثهم الله يوم القيامة مع عيسى بن مريم عليهما السلام»[١].

ويقول الإمام علي – رضي الله تعالى عنه – ناصحًا الناس في الفتن: «**كن في الفتنة كابن اللبون لا ظهر فيُرْكَب، ولا ضرع فيُحْلَب**»[٢].

وليس معنى ذلك أن يعتزل المسلم المجتمع، وإنما معنى ذلك أن لا يعطي نفسه للفتنة ولا يَنْجَرَّ إليها ويُسْتَدْرَجَ فيها، فهذا أول ما يجب على المسلم تجاه الفتنة، أنْ يَفِرَّ منها، ولا يشارك فيها، فثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن السعيد لَمَنْ جُنِّبَ الفتن، إن السعيد لَمَنْ جُنِّبَ الفتن، إن السعيد لَمَنْ جُنِّبَ الفتن**»[٣].

ثم عليه أن يَتَعَوَّذَ بالله منها حتى تَنْجَلِيَ ويعودَ الصفاء في

---

(١) أخرجه أبو بكر القرشي في "التواضع والخمول" عن عبد الله بن عمرو (ج١/ ٤٢رقم١٦) ط دار الكتب العلمية. رواه أبو نعيم في "حلية الأولياء". (١/ ٢٥)، ط دار المعارف الرياض

(٢) "نهج البلاغة" بشرح عبد الحميد بن أبي الحديد (٩/ ١٤٦) ط عيسى الحلبي

(٣) أخرجه أبو داود (ج٤/ ١٠٢رقم٤٢٦٣)ط دار الفكر، وجزء من حديث أخرجه الطبراني في الكبير (ج٢٠/ ٢٥٢رقم ٥٩٨) ط مكتب العلوم والحكم، كلاهما عن المقداد بن الأسود.

الرؤية والنَّفْسِ مَرَّةً أخرى، وقد وردَ في الدعاء الذي علمه النبي أصحابه، فقال ﷺ: «**اللهم رب محمد النبي اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن ما أحييتنا**»(١).

وبعد تجنُّبِ الفتن والفرار منها، والتعوذ بالله من شَرِّها وصِدْقِ الالتجاء إليه في أن يُجَنِّبَه اللهُ شَرَّها، على المسلم أن يراعي تقوى الله في كل أوقاته حتى يتبيَّن له الأمر وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الأنفال:٢٩).

وحقيقة التقوى هي التباعد عن كُلِّ مُضِرٍّ في الآخرة، وقد ذُكر في معناها أيضًا: أنها عبارة عن حجاب معنوي يَتَّخِذُه العَبْدُ بينه وبين العقاب، كما أنَّ الحجابَ المحسوسَ يَتَّخِذُه العَبْدُ مانعًا بينه وبين ما يكرهه.

وكثرت آيات القرآن الكريم التي تَحُثُّ المسلمين على

---

(١) جزء من حديث أخرجه أحمد (ج٦/ ٣٠٢رقم٢٦٦١٨) ط مؤسسة قرطبة، جزء من حديث أخرجه الطبراني في الكبير (ج٢٣/ ٣٣٨رقم٧٨٥) ط مكتب العلوم والحكم،كلاهما عن أم سلمة.

تقوى الله ﷻ، وتَنَوَّعَتْ أشكال الجزاء عليها، فتارة يُعَلِّمُنَا الله أنها سبب الفلاح، فيقول سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ١٨٩)، وتارة يأمرنا ربُّنا بملازمة المتقين، فيقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ١٩٤)، وتارة يُعَلِّمُنَا ربُّنا أنها معيار تقويم الناس عنده سبحانه، فيقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣)، وكانت التقوى وصية الله لجميع الأمم، ووصيته للذين أوتوا الكتاب من قبلنا، كما أنها وصية الله لنا كذلك، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِياً حَمِيداً﴾ (النساء: ١٣١).

وعلى المؤمن أن يُكْثِرَ مِنْ أعمال الخير بشكل عام ليُعِينَه الله بذلك على الخروج من الفتن، وأن يُبَادِرَ بتلك الأعمال استجابة لأمر النبي ﷺ حيث يقول: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقِطَعِ الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا**»[(١)]،

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة(ج١/ ١١٠رقم١١٨) ط إحياء التراث العربي.

ويقول النبي ﷺ: «**العبادة في الهرج كهجرة إلي**»[١] وفي رواية «**العبادة في الفتنة كالهجرة إلي**»[٢]؛ يعني بذلك أنَّ لها ميزة وفضل وأجر عظيم في أوقات الفتن.

يقول الحافظ ابن رجب - رحمه الله - مُعَلِّقًا على هذا الحديث: «**وسبب ذلك أن الناس في زمن الفتن يتبعون أهوائهم ولا يرجعون إلى دين، فيكون حالهم شبيهًا بحال الجاهلية، فإذا انفرد من بينهم من يتمسك بدينه ويعبد ربه ويتبع مراضيه ويجتنب مساخطه كان بمنزلة من هاجر من بين أهل الجاهلية إلى رسول الله ﷺ مؤمنًا به،متبعًا لأوامره مجتنبًا لنواهيه**».

ومن أَهَمِّ ما يُعين المسلم على الخروج من تلك الفتن كتاب الله ﷻ كما وَصَفَه بذلك الصادق المصدوق فيما وَرَدَ عنه أنه ﷺ قال: «**إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ، قَالَ: قُلْتُ: فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ: كِتَابُ الله فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ يَرُدَّهُ**

(١) أخرجه مسلم عن معقل بن يسار(ج٤/ ٢٢٦٨رقم٢٩٤٨) ط إحياء التراث العربي.

(٢) أخرجه أحمد عن معقل بن يسار(ج٥/ ص٢٧رقم٢٠٣٢)تعليق شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح وهذا إسناد قوي، ط مؤسسة قرطبة.

مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ، أَضَلَّهُ اللهُ، هُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي، لاَ تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلاَ تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلاَ يَخْلُقُ عَنْ رَدٍّ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَهُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ حِينَ سَمِعَتْهُ، أَنْ قَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دُعِيَ إِلَيْهِ، هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَمَنِ اعْتَصَمَ بِهِ، هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»[1].

ذلك فيما يَخُصُّ الفِتَنَ التي تصيب الإنسان فتُغَبِّش على الرؤية، أما النوع الثاني من الفتن وهو اختلاط أهل الحق وأهل الباطل فيصعب التمييز بينهم، فقد أشار القرآن إلى هؤلاء المُنْدَسِّين الذين يتسبَّبُون في فتنة المجتمع، وهم لا يَخْفَوْن عليه سبحانه، فقال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الأحزاب:١٨).

وقد ذكر النبي ﷺ ذلك الزمان الذي يختلط فيه أهل

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (ج٢/ ٣٢٥رقم١٩٣٥) ط دار الكتب العلمية، وأخرجه البزار في مسنده (١/ ١٥٦رقم٨٣٦) كلاهما عن الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب.

الحق بأهل الباطل، ويظن الناس أن الكاذب صادق، والصادق كاذب حيث قول ﷺ: «عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّهَا سَتَأْتِي عَلَى النَّاسِ سِنُونَ خَدَّاعَةٌ يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ قِيلَ وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ قَالَ السَّفِيهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ»(١).

وفي حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه وهو حديث طويل عبارة «وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ كَذَلِكَ حَتَّى تَرَوْا أُمُورًا عِظَامًا يَتَفَاقَمُ شَأْنُهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، تَسْأَلُونَ بينكم هَلْ كَانَ نَبِيُّكُمْ عليه السلام ذَكَرَ لَكُمْ مِنْهَا ذِكْرًا، حَتَّى تَزُولَ جِبَالٌ عَنْ مَرَاتِبِهَا»(٢).

ويبدو أننا نعيش في تلك الحالة الثقافية التي لم تستقر بعد، ولم تتحدد مفاهيم كثيرة منها، والتي خرج الرويبضة

(١) أخرجه أحمد (ج٢/ ٢٩١رقم ٧٨٩٩) ط مؤسسة قرطبة،أخرجه ابن ماجه (ج٢/ ١٣٣٩رقم٤٠٣٦) ط دار الفكر، وأخرجه الحاكم (ج٤/ ٥١٣رقم ٨٤٣٩) وقال هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه، قال الذهبي في التلخيص: صحيح.ط دار الكتب العلمية.وكلهم عن أبي هريرة.

(٢) جزء من حديث أخرجه ابن حبان عن سمرة بن جندب(٧/ ١٠١رقم٢٨٥٦) وقال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي في "تلخيصه". قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف لجهالة ثعلبة ط مؤسسة الرسالة.

ليساهم فيها ويتكلم في الشأن العام، من التصدر للنصيحة حتى الطبية منها، إلى الإفتاء ولو بغير علم مع أنه لم يحفظ آية كاملة إلا في قصار السور، إلى تولي المناصب العامة، إلى الكلام في الشيوعية البائدة أو الفن الجديد، إلى من يريدنا أن ننسلخ عن أنفسنا وديننا وتاريخنا، إلى من يريد إرهابًا فكريًا، إما هو وإما الجحيم، ثم جحيمه هي الجنة، وأن جنته هي الجحيم؛ لأنه دَجَّال من الدَجَاجِلَة.

يقول رسول الله ﷺ في شأن الدجال: «**قَالَ ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ وَجَبَ أَجْرُهُ وَحُطَّ وِزْرُهُ وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ وَجَبَ وِزْرُهُ وَحُطَّ أَجْرُهُ**»[1].

والمَخْرَجُ من ذلك كله هو الصبر والتأكيد على الحرية الملتزمة وترك الرويبضة يكتشفه الناس في تفاهته وفي هشاشة تفكيره، والاستمرار في بناء الإعلام الجاد الملتزم الذي سوف يطرد الهَشَّ والغَثَّ والذي سيجعل التافه يتعلم أو يستحي أو يتوارى أو يسير مسار الجادين أو يحاول حتى لو لم يصل إلى مستواهم وأنا مستبشر خيرًا أن هذه الحالة من

(١) جزء من حديث أخرجه أبي داود (ج٤/ ٩٥رقم٤٢٤٤) ط دار الفكر، وجزء من حديث أخرجه أحمد (ج٥/ ٤٠٣رقم٢٣٤٧٦) ط مؤسسة قرطبة. كلاهما عن حذيفة.

الكسل والتفاهة سوف تنتهي؛ فقد ظهرت صحافة الإثارة في أمريكا سنة (١٨٣٠) ثم استقرَّ الأمْرُ الآن، وأصبح من دواعي الاشمئزاز عند الطبقة المثقفة هناك أن يرى أحدهم صحيفة من هذه الصحف في يد قارئ مسكين وكأنه يقول له بنظرته العاتبة: (هل ما زلت هنا لم تتعلم؟) إن هذه الثقافة لن تأخذ كثيرًا من الوقت، وذلك بسبب التطور الهائل من الاتصالات والمواصلات والتكنولوجيا.

وحتى نَصِلَ إلى هذه الحالة علينا أن نصبر ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف:١٨) وأن نتصَدَّق بعِرْضِنا على الناس **«عن أبي هريرة أن رجلا من المسلمين قال: اللهم إنه ليس لي مال أتصدَّق به وإني جعلت عرضي صدقة، قال: فأوْجَبَ النبي ﷺ أنه قد غفر له»**[1]، وأن نهجرهم هجرًا جميلا، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (المزمل:١٠) وأن نتمسَّك بصفات عباد الرحمن، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ

(١) أخرجه ابن حجر في "الإصابة في تمييز الصحابة" (ج٤/ ٥٤٧رقم٥٦٦١) ط دار الجيل – بيروت.

عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣ - ٦٥).

والشرع يأمر أن نرجع إلى الحقائق لا إلى الأوهام، وإلى الواقع لا إلى الخيال المريض، قال تعالى وهو ينهانا عن الفتنة بكل أشكالها كلامًا وفعلاً وسلوكًا: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ (لقمان: ٢٠، ٢١).

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (لقمان:٦)، وقال: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ (النجم:٥٩، ٦١)، وسامدون أي تُغَنُّون بالباطل من القول، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ (الأنعام:١١٦).

وبالنظر إلى الفتنة ومبعثها في النفس الإنسانية يمكن أن نقسم الفتنة إلى قسمين:

الأولى: فتنة الشبهات.

الثانية: فتنة الشهوات.

وفتنة الشبهات: كالتشكيك في صحيح العقيدة، والدعوة إلى الغُلُوِّ والتَّطَرُّف، وهذا النوع من الفتن يزول بالعلم.

وأما فتنة الشهوات: وهي الغالبة على عامَّةِ البشر كالافتتان بالنساء أو بالمال الحرام أو بالمنصب أو بالجاه، وتزول هذه الفتن بالتقوى.

فبالعلم والتقوى يَنْجُو الإنسان من كل أشكال الفتن، وبغياب العلم والتقوى تظهر الفتن، يقول النبي ﷺ: «**يُقْبَضُ الْعِلْمُ وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ وَالْفِتَنُ وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ قِيلَ يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْهَرْجُ فَقَالَ هَكَذَا بِيَدِهِ فَحَرَّفَهَا كَأَنَّهُ يُرِيدُ الْقَتْلَ**»(١).

وفي رواية أخرى: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقْبَضَ الْعِلْمُ وَتَكْثُرَ الزَّلَازِلُ وَيَتَقَارَبَ الزَّمَانُ وَتَظْهَرَ الْفِتَنُ وَيَكْثُرَ الْهَرْجُ وَهُوَ الْقَتْلُ الْقَتْلُ حَتَّى يَكْثُرَ فِيكُمْ الْمَالُ فَيَفِيضَ**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري عن أبي هريرة (ج١/ ٤٤رقم٨٥) ط ابن كثير اليمامة.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة (ج١/ ٣٥٠رقم٩٨٩) ط ابن كثير اليمامة.

والفتنة التي هي الابتلاء والامتحان تكون بالخير والشر، يقول تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء:٣٥).

والفتنة ليست شرًّا من كل الوجوه، بل فيها أَوْجُهٌ للخير، ولا يعني ذلك أننا نَسْعَى إليها أو أن نطلبها ولكننا لا بد أن نستفيد منها إذا حدثت؛ من هذا الخير: التمييز بين الخبيث والطيب، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ﴾ (آل عمران:١٧٩). وقال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾ (الأنفال:٣٧).

وقال ﷻ: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت:٢، ٣).

وفي الفتنة تقوية لإيمان المؤمنين وتدريب لهم على الصبر والجَلَد، وتَمْحِيصٌ لِمَا في قلوبهم من الإيمان، قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ

لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤٠، ١٤١)، وقال سبحانه: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

كما أنها سنن الذي سبقوا وعلامة على اصطفاء الله لعباده، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤).

هذا فيما يَخُصُّ الفتن وكيفية الخروج منها بفرقان الله ﷻ، وكان الفرقان هو الخطوة الثالثة من خطوات الخروج من المحرمات والشهوات أما أولى تلك الخطوات أن يجعل المسلم النبي ﷺ أبا له، والثانية أن يكثر ذكر الله ﷻ، والثالثة أن يهتدي ويفرق بين الحق والباطل بفرقان ربه.

رزقنا الله النَّجَاةَ مِنَ الفتن ما ظهر منا وما بطن، ورزقنا الهداية.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *



السيرة الذاتية الخاصة
بفضيلة مفتي الديار المصرية
الأستاذ الدكتور/ عَلي جُمعَة

الاسم: علي جمعة محمد عبد الوهاب.

مكان الميلاد: بني سويف ـ جمهورية مصر العربية.

تاريخ الميلاد: يوم الاثنين ٧ من جمادى الآخرة ١٣٧١ الموافق ٣/ ٣/ ١٩٥٢م.

الحالة الاجتماعية: متزوج، وله ثلاث بنات تزوجن وأنجبن له أحفادًا.

المؤهلات العلمية :

• دكتوراه في أصول الفقه من كلية الشريعة والقانون ـ جامعة الأزهر ١٩٨٨م مع مرتبة الشرف الأولى.

• ماجستير في أصول الفقه من كلية الشريعة والقانون ـ جامعة الأزهر ١٩٨٥ بتقدير ممتاز.

• الإجازة العالية (ليسانس) من جامعة الأزهر ١٩٧٩ .

• وكان قد حصل على بكالوريوس التجارة من جامعة عين شمس ١٩٧٣م.

الإجازات العلمية :

• حاصل على أعلى الأسانيد في العلوم الشرعية وإجازات من أفاضل العلماء في العلوم الشرعية في الفقه والحديث والأصول وعلوم العربيــة.

الوظـائف :

• مفتي جمهورية مصر العربيـة منذ عام ٢٠٠٣ وحتى الآن.

• عضو مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر الشريف منذ عام ٢٠٠٤ وحتى الآن.

• عضو مجمع الفقه التابع لمنظمة مؤتمر العالم الإسلامي بجدة.

• أستاذ أصول الفقه بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة – جامعة الأزهر.

• عضو مؤتمر الفقه الإسلامي بالهند.

الأنشطة العلمية :

١) ناقش وأشرف على أكثر من سبعين رسالة علمية في جامعات شتى.

٢) شارك كخبير بمجمع اللغة العربية في إعداد موسوعة مصطلحات الأصول الصادرة عن المجمع. وهو خبير به حتى الآن.

٣) اشترك في وضع مناهج كلية الشريعة بسلطنة عمان حتى افتتاح الكلية المذكورة وشارك في الافتتاح كعضو مؤسس.

٤) اشترك في وضع مناهج جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية بواشنطن.

٥) عُين مشرفًا مشاركًا بجامعة هارفارد بمصر بقسم الدراسات الشرقية.

٦) عُين مشرفا مشاركا بجامعة أكسفورد لمنطقة الشرق الأوسط في الدراسات الإسلامية والعربية.

٧) مثّل الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا وشارك في محاضراتها الثقافية وفي تقويم الأساتذة المساعدين والمدرسين في لجان ترقياتهم.

٨) شارك في فحص النتاج العلمي للترقية إلى درجة أستاذ وأستاذ مشارك لكثير من جامعات العالم.

٩) وغير ذلك كثير، وقد اقتصرنا هنا على ذكر أهمه هذه الأنشطة.

المؤلفـــات ومنها:

١) المصطلح الأصولي والتطبيق على تعريف القياس.
٢) الحكم الشرعي عند الأصوليين.
٣) أثر ذهـاب المحـل في الحكـم.
٤) علاقة أصول الفقه بالفلسفـــة.
٥) مدى حجيـة الرؤيـــا.
٦) النسـخ عند الأصـوليين.
٧) الكلـم الطيب .. فتـاوى عصريـــة.
٨) الكلـم الطيب .. فتـاوى عصريـــة (٢).
٩) الديـن والحيـاة .. فتـاوى معاصـــرة.
١٠) الجهـــاد في الإســـلام.
١١) سيدنـا محمد رسـول الله للعالميـــن.
١٢) الفتـوى ودار الإفتــاء المصريـــة.
١٣) فتـاوى الإمام محمد عبده (اعتنى بجمعه واختياره قدم لـه).
١٤) الطريق إلى الله.
١٥) الوحي – القرآن الكريـم.

الأبحاث والمقالات:

كثيـــرة جـــدًا منهـا:

١) الوقـف فقهـا وواقعـــا.
٦) الإمـام محمد عبـده مفتيـــا.
٧) التسامـح الإسلامـــي.
٨) الإسلام بين أعدائه وأدعيائـــه.
٩) الإسلام يتفق ولا يصطدم ومبادئ السلام والعدل الدوليين.

تحقيق كتب منها:

• رياض الصالحين للإمام النووي، دار الكتب اللبناني.

• جوهرة التوحيد للباجوري، دار السلام.
• شرح ألفية السيرة للأجهوري، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

المؤتمرات :

حضر العديد من المؤتمرات العلمية (أكثر من مائة مؤتمر علمي)، وقدم بها أبحاثا في أكثر من ثلاثين دولة من دول العالم.

* * *

الفهرس

* * *

